شعرية اللغة عند مفدي زكرياء اللهب المقدس أنموذجا

د/ لخضر ذيب
قسم اللغة والأدب العربي كلية الآداب واللغات
– الأغواط - الجزائر

ملخص: لقد هدفت هذه الدراسة إلى لفت الاهتمام بأيقونة الشعر الثوري الجزائري، هذا الأديب الذي أبدع أعمالا جليلة وسخر قلمه للدفاع عن ثوابت الأمة في مرحلة أقل ما يقال عنها أنها مرحلة اتسمت بالقمع وتكميم الأفواه ، وتشويه صورة الجزائريين ، وعلى الرغم من قسوة الظروف الاستعمارية إلا أن الشاعر مفدي زكريا قد أثرى الساحة الثقافية الجزائرية ورفد المكتبة الجزائرية خاصة والعربية عامة بإبداعاته الشعرية.

وقد حاولت الدراسة تتبع لغة الشاعر بالكشف عن جمالها المختبئ وتتبع تراكيبه النحوية وأثر استخدامها على نصه.

RESUME :

Cette étude vise à mettre en cause se poète révolutionnaire algérien, cet auteur qui a donné par ses mots, de grande œuvres afin de défendre sons pays et sa nation contre un tel colonisateur et malgré toutes les conditions difficiles que connaissait notre poète, il a pu enrichir la bibliothèque algérienne et arabe de plusieurs créations poétiques.

L'étude a essayé de suivre la langue du poète détecte cacher sa beauté et suivre les Compositions grammaticale et l'impact de l'utilisation sur son texte.

مقدمة : اللغة عنصر أساس يعول عليه الأديب شاعرا كان أو ناثرا في بناء نصه وبها تتحقق الشعرية التي تضفي على العمل الإبداعي جمالا إضافيا يخرجها من وظيفتها التواصلية المباشرة إلى الوظيفة الفنية الإيحائية ، لكن لغة الشاعر تختلف عن لغة الناثر ، فالأول سيد للغة ، يروضها ويطوعها ويحتويها وهو بذلك يعلي من شأنها ، لأنه يضعها في علاقات جديدة قادرة على منحها طاقة جمالية ليست في حالة عزلتها أو في تركيبها التقليدي[1]. أما الثاني فشأنه من اللغة أن يستخدمها كما هي على حقيقتها .

لذلك يمكننا القول : " إن لغة الشعر هي الوجود الشعري الذي يتحقق في اللغة انفعالا وصوتا موسيقيا وفكرا"[2] ، بل هي " المادة الأساسية المشكلة لوجودنا الثقافي والحضاري وبالضرورة هي الأساس أيضا في عملية الإبداع الفني ، لذلك فإن لكل أديب طريقة خاصة في استخدام الكلمة وتركيب الجملة من حيث النحو البلاغي . إن الأديب لا يركب الجملة ليعبر بها عن معنى تقريري مألوف . و إنما يتعامل مع اللغة بطريقة تفجر فيها خواص التعبير الأدبي ، وتجعل للعبارات والأنساق والجمل قوة ، تتعدى الدلالة المباشرة ، و تنقل الأصل إلى المجاز ، لتفي بحاجة الفن في التعبير والتصوير"[3].

الإشكالية : يحاول البحث الإجابة عن التساءل الآتي : هل لغة الشاعر تختلف عن غيره من الناس وإلى أي مدى يصل الاختلاف ؟ و إذا كان الأمر كذلك فلمن يكتب الشاعر ؟ ومن يقرأ شعره ؟ ومن يفهمه ؟

تهدف الدراسة إلى التعرف على لغة الشعر عامة ولغة الشاعر مفدي زكرياء خاصة فيحانبها الجمالي وذلك بتوظيفه لبعض التقنيات اللغوية التي تضفي على النص بعدا

---

1 - خليل إبراهيم العطية : التركيب اللغوي لشعر السياب ، دار المعارف للطباعة والنشر – سوسة – تونس ، 1999 ، ص17

2- سعيد الورقي : لغة الشعر العربي الحديث ، مقوماتها الفنية وطاقاتها الإبداعية ، دار المعارف ، مصر ، القاهرة ، ط2 ، 1983 ، ص08

3- عبد السلام المسدي : الأسلوب والأسلوبية ، دار سعاد الصباح ، ط4 ، 1994 ، ص207-208

دلاليا وجماليا فضلا على الانسجام والتلاحم الحاصل في بنيته اللغوية باعتباره كل متكامل

بحثنا في الأساس هو محاولة للكشف عن الجمالية التي تختبئ خلف الجانب التقعيدي للغة ، وسنحاول تلمس تلك الجمالية في بعض شعر مفدي زكرياء.

هذا الطرح يقتضي بالضرورة أن يكون للشعر لغة خاصة تميزه عن لغة النثر و لا نتحرج في القول :إن لغة الشعر أثارت ضجة ونقاشا حادين ، بل فجرت قضية أدبية كبيرة أخذت حيزا كبيرا من مساحة النقد العربي قديما وحديثا[1]. مما جعل أدونيس يقول " لم أقصد من هذا التفجيراستخدام التراكيب الدارجة في لغة الحياة اليومية أو المفردات النابية المبتذلة أو الصيغ غير النحوية أو الألفاظ الأجنبية والعبارات العلمية ، أو التبسيط الصحفي ، مما يوهم الذين يمارسون هذا الاستخدام أنهم يجددون ظنا منهم أن هذه الأشياء لم يعرفها الأقدمون ، وإنما عنيت تفجير البنية الشعرية التقليدية ذاتها ، أي بنية الرؤيا وأنساقها ومنطقها ومقارباتها ، أو بعبارة أكثر إيجازا تفجير مسار اللغة وأفقها"[2].

قد نتفق مع أدونيس في جزئية معينة كونه يدعو إلى تجاوز النمطية الشعرية ، لكون الشعر تجربة لا صناعة ، فحري بنا أن نجرده من التأطير والتحديد والقومسة[3] ، التي ترى أن للشعراء ألفاظا معروفة وأمثلةمألوفة لا ينبغي للشاعر أن يتعداها ولا أن يستعمل غيرها كما أن الكتاب اصطلحوا على ألفاظ بأعينها سموها الكتابية لا يتجاوزونها إلى ما سواها[4].

1- شاكر النابلسي : الضوء واللعبة استكناه نقدي لنزار قباني ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 1986 ، ص528

2- أدونيس : سياسة الشعر ، دار الآداب ، بيروت ، 1985 ، ص17

3- أي تحديد قاموس شعري للشعراء لا يتجاوزونه أو يخرجون عنه ، وإلا عد ذلك خروج عن الشعر

4- ابن رشيق : العمدة ، تحقيق وتعليق : محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، مصر ، ط1 ، ج1 ، 1963 ، ص107

طبعا هذه مغالطة تحد من فاعلية الكلمة ، لأن الشعر تحرر وانطلاق ، تعدد واتساع مجال فسيح رحب ، وبناء علاقات ، فالكلمة في الشعر غيرها في النثر فمعنى الكلمة في الشعر ليس في ذاتها بل في سياقها وعلاقاتها بما قبلها وما بعدها وهو التلوين الذي تأخذه بفضل طريقة التعبير ، للكلمة في النثر معنى واحد هو معناها الذي وضعت له أصلا وهو معناها الأول . أما في الشعر فإن للكلمة بالإضافةإلى هذا المعنى الأول معنى ثانيا ، ويتعدد هذا المعنى بفضل الصور التي تحدث تغييرا في دلالة الكلمات من حيثأنها تستخدمها بغير ما وضعت له أصلا[1]. فالكلمة هي الكلمة ، لكن العبرة بطريقة الاستخدام التوظيف ، فهي بمثابة كائن حي يفجر مع كل قراءة مدلولات كثيرة أنها توحي بما لا يحدد ، لذلك تحتفظ بقيمتها[2].

التراكيب النحوية :

1-التركيب الشرطي :

إن الشرط معنى عام ، يهيمن على الفكرة منذ نشوئها في الذهن ، فيعبر المتكلم عن هذا المعنى بأسلوب خاص من أساليب نظم الجملة[3]،فهو أسلوب لغوي ينبني على جملة ميكانيكية تتألق من أداة و حرف و اسم ، ومن تركيبين سمي الأول الشرط ، والثاني الجواب والجزاء ، تقوم الأداة بربط التركيبين أو الشقين ارتباطا وثيقا يحول دون استقلال أحدهما عن الآخر ، ينزل الشق الأول منزلة السبب والشق الثاني منزلة المسبب ، ويتحقق المسبب إذا تحقق السبب ، وينعدم الثاني إذا انعدم الأول[4].

1- أدونيس : كلام البدايات ، دار الآداب ، 1989 ، ص167

2- فاتح علاق : مفهوم الشعر عند رواد الشعر العربي الحر ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2005 ، 217

3- سناء حميد البياتي : قواعد النحو في ضوء نظرية النظم ، عمان ، دار وائل ، ط4 ، 2003 ، ص49

4- ميشال زكريا : الألسنية (علم اللغة الحديث) المبادئ والإعلام ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط2 ، بيروت ، 1983 ، ص91

والشرط هو تعليق شيء بشيء ، بحيث إذا وجد الأول وجد الثاني ، وقيل : إن الشرط ما يتوقف عليه وجود الشيء ، يكون خارجا عن ماهيته ولا يكون مؤثرا في وجوده ، وقيل الشرط ما يتوقف ثبوت الحكم عليه[1] . و أسلوب الشرط يتألف – غالبا – من ثلاثة عناصر التي هي أداة الشرط ، وفعل الشرط وجواب الشرط ، أما أدوات الشرط فهي " كلمات وضعت لتدل على التعليق بين الجملتين والحكم بسببية أولاهما ومسببة الثانية ولذلك يجب استقبال الفعلين بعدها ، لأن أدوات الشرط من شأنها أن تنقل الماضي إلى الاستقبال ، وتخلص المضارع له[2]".

لقد شاع التركيب الشرطي في شعر مفدي زكرياء بشكل لافت للانتباه ، ومرد ذلك هو ما يمتاز به هذا الأسلوب من مرونة لغوية ، نابعة من تعدد الأدوات ودلالاتها ، وتنوع في التراكيب التي تدخل عليها ، فهي تدخل على الجملة الفعلية غالبا ، ولكنها لا تلتزم زمنا محددا ، ثم إنها تدخل على الجملة الاسمية في بعض الأحيان ، على تقدير فعل مضمر بعد الأداة .

إن هذا التنوع والتعدد يوفران للشاعر ثراء في استعمال اللغة والتعامل معها ، وقد يكون ما يمتاز به أسلوب الشرط من تعقيد وتركيب ، لكونه يتألف من جملتين ، تتعلق إحداهما بالأخرى ، سببا في ميل الصعاليك إليها ، لأنها توافق ما في نفوسهم من حدة الطبع ، وشدة انفعال ، وتقلب وحركة ، وهو ما يفسره هذا التركيب للجملة الشرطية ، ومن خصائص أسلوب الشرط أن الخطاب يكون فيه أعم .

وكما سبق وأشرنا ، فالمتصفح لديوان اللهب المقدس ، يكاد لا يجد قصيدة تخلو من هذا المؤشر الأسلوبي ، ولعل في اهتمام الشاعر بهذه البنية وتوظيفها ضمن نصوصه الشعرية ما يحقق الفائدة التي يتوخاها مفدي زكرياء حين استخدم هذه

1- أبي الحسن على بن محمد بن علي الجرجاني : التعريفات ، تح :إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان ، ط1 ، 1405 ، ص166

2- السيوطي : همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ، تحقيق : عبد الحميد هنداوي المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، ج2 ، 1986 ، ص59

التقنية والتي تتجسد في خلق حركة شعرية وفضاء مكاني فسيح للبوح بمكنوناته والإعراب عن أفكاره.

فهو يقول :

واقض يا موت في ما أنت قاض أنا راض إن عاش شعبي سعيدا

أنا إن مت ، فالجزائر تحيا حرةمستقلة لن تبيدا

قولة ردد الزمان صداها قدسيافأحسن الترديدا[1]

فارتباط عبارة الشرط " مت " بعبارة الجواب " فالجزائر تحيا " ، مبني على وجه المقابلة بين الموت والحياة ، فموت فرد هو حياة الجميع ، والشاعر وهو يتكلم بلسان الشهيد بل بلسانه يرجو تحقق الموت ، التي تمنحه فرصة أن يكون ضمن قائمة الشهداء ، هذه الشهادة أو هذه الإجازة تمنحه الحياة الأبدية الأخروية ، كما تمنح له الفضل في أن يحقق لشعبه الحرية والحياة الدنيوية وكم هو جميل أن يظهر مفدي قدرته اللغوية في التعامل مع أزمنة التركيب الشرطي ، حيث يوظف الفعل المضارع في فعل الشرط " تحيا " ليمر الى الدلالة المستقبلية في قوله : " لن تبيدا " مما أكسب البيت حيوية وحركة صاحبت سيرورة الزمن الفعلي ، وأضفت عليه مزيدا من الدلالات تتواءم والغرض الشعري وتنسجم ودلالة النص العامة ، بل الأجمل من ذلك أن يحسن الشاعر اختيار أداة الشرط (إن) التي تحقق هذه الدلالة ، فإن الأصل فيها أنها تأتي للمعاني المحتملة الوقوع والمشكوك في وقوعها[2].فالشاعر يشكك في موت " زبانا " ، بل هو على يقين أنه حي يرزق في جنة عدن ، وعدا على الله حق ، كما أنه يشكك في بقاء الاستعمار على أرض الجزائر فلا بد من يوم تبزغ فيه شمس الحرية على أرض الجزائر الحبيبة ، وفعلا قد جاء هذا اليوم .

ومحاولة منه لتأكيد هذه المعاني في تجربته الشعرية ، وفق شعرية نصية ، يلجأ الشاعر مرة أخرى إلى توظيف أسلوب الشرط مع تغيير الأداة فيجعل الملتقي متيقنا

1- مفدي زكرياء : اللهب المقدس ، ص10

2- فاضل الصالح السمرائي : معاني النحو ، ط1 ، الكويت ، 1981 ، 448/4

بأن الجندي الجزائري في ساحة الفدى يقف أمام موقفين لا ثالث لهما ، إما النصر وإما الشهادة ، فيقول :

كن شواظا وتنزل كالقضا وتفجر فوق هامات الجبابر
صلواتي لك والله معك سوف القاك باعياد البشائر
فإذا ما عشت ، حققت الرجا وإذا ما مت فلتحي الجزائر[1]

لقد استعمل الشاعر أداة الشرط " إذا " التي اتصلت بها ما الزائدة التي تفيد التوكيد ، كقوله تعالى: ﴿**والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون**﴾[2].

والأصل في هذه الأداة " أن تكون للمقطوع بحصوله ولكثير الوقوع"[3] ، حيث تؤدي وظيفة الربط والتعليق ، أي أن يعلق الشيء على شيء ، فاستفاد منها مفدي ليدفع ابنه إلى ساحات الوغى للذود عن الوطن في دلالة شرطية تلازمية مقطوع بحصولها ، مما أضفى على البيت الشعري جوا نفسيا يجد فيه المتلقي صدق مشاعر من ناصح أمين يريد أن يصل بالبلاد إلى بر الأمان ، فهو يقدم ابنه ليكون نموذجا يحتذى به أبناء الجزائر.

ولنتأمل قوله[4] :

درأبي ذروثورته فما (لماركس) عنه اليوم الهانا
ويل القوي ، من المستضعفين ، إذا حان القصاص...ودانتنا خطايانا
الخيروالشرفي هذا الورى دول فاصنع جميلا تجد عدلا و إحسانا

1- مفدي زكرياء : اللهب المقدس ، ص06

2- سورة الشورى ، الآية 37

3- موفق الدين أبو البقاء بن يعيش الموصلي : شرح المفصل للزمخشري ، تحقيق : إميل بديع يعقوب ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، 2001 ، ص126

4- مفدي زكرياء : اللهب المقدس ، ص298

فالوقوف عند هذه البنية الشرطية، يظهر براعة الشاعر في إيجاد الانسجام في هذه الثنائية التقابلية بين السلوك القوي وسلوك المستضعف، والأمور تزداد بيانا عندما تقابل بأمر مباين له[1].

والملتقي يجد نفسه في موقف حرج إزاء هذه القضية الإنسانية ، إنه يستمع لأطراف النزاع وهم يتبادلون التهم والإدانات في المحكمة الإلهية ، أمام العدل والحق ، حيث لا ظلم اليوم واقترب القصاص وإصدار الحكم ، طبعا عنصر المفاجأة مستبعد، لأن السياق يقتضي أن تكون الغلبة للمستضعف المظلوم ما دام الحكم إلاهيا ، فلا تعارض بين ما يرجوه الشاعر ويتوقعه القارئ ، ولعل في ذلك تمام الشعرية واستفائها لجميع جماليتها حين تنتفي المعيقات وتزال الحواجز بين المتلفظ والمتلقي ، لأنهاأشبه ما تكون بمنهج منكسر بعنصر غير متوقع[2].وقد تم هذا التقارب باستخدام الأداة " إذا " والتي تختص بدخولها على " المتيقن والمظنون "[3] ، بل إن ذلك يؤكد علاقة اللغة بعلم النفس ، إذ تمتد العلاقة بينهما إلى التركيز على بنية التراكيب النحوية في بعدها النفسي[4].

وبذلك استطاع الشاعر مفدي زكرياء أن يحقق رغباته، وأن ينتصر لنفسه وللشعب الجزائري ولجميع المضطهدين في المعمورة ، حين أسند الحكم للعدالة الإلهية .

1- نوزاد حسن خؤشناو : التركيب الشرطي (إذا) الدال على الثنائية التقابلية لسلوك المنافق في القرآن الكريم ، مجلة كلية الآداب ، العدد 95 ، جامعة صلاح الدين ، أربيل.

2- محمد حسين أبو موسى : دلالات التراكيب ، منشورات جامعة قاريونيس ، ليبيا ، ط1 ، 1979 ، ص255

3- جلال الدين بن عبد الرحمان السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة العصرية بيروت ، ط1 ، 2006 ، 1/148-149

4- رجاء عيد : لغة الشاعر ، دار المعارف ، القاهرة ، 1985 ، ص5

التقديم والتأخير:

يسعى الشاعر جاهدا ليصنع له لغة شعرية تختلف عن غيره من الشعراء ، لغة الشعرية ويحطم من أنساقها ونظامها الثابت ويخلق لنفسه نظاما فريدا خاصا به، وبهذا الفهم فإننا نذهب الآن إلى أن الصورة الفنية شيء ضروري حتمي ، لأن الشاعر بمجرد أن يحاول التجديد والكشف يضطر إلى التعامل مع الاستعارة والمجاز وغير ذلك .والشاعر عندما يحاول تحديد الماهية الغامضة والمراوغة لانفعالاته أو إدراكها يشعر بعجز اللغة العادية عن القيام بهذه المهمة ومن ثم استخدام لغة شعرية ، لغة خاصة[1].ومن تلك السبل الفنية والطرق التعبيرية ، التي توسل بها الشاعر مفدي زكرياء ليرتفع بلغته من عموميتها ويتحول بها إلى صوت شخصي ، وينظمها من خلال رؤيته وموهبته في أغنى الأشكال تأثيرا ، مستثمرا دلالاتها وأصواتها وعلاقاتها و بنائها وإيقاعاتها على نحو فريد[2].

فضلا على ترتيب وحداتها الذي يستند الى تلك الطريقة الفنية التي نعني بها التقديم والتأخير ، أي تقديم المتأخر ، وتأخير المتقدم وفق ما تمليه وتقتضيه الوظيفة الشعرية ، لأنه من العادة أن يرتبط ترتيب الكلام بترتيب المعاني في النفس .

فالتقديم والتأخير باب كثير الفوائد جم المحاسن واسع التصرف بعيد الغاية لا يزال يفتر لك عن بديعة ويفضي بك غلى لطيفة ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه ويلطف لديك موقعه ثم تنظر فتجد سببإن راقك ولطف عندك أن قدم فيه شيء وحول اللفظ عن مكان إلى مكان[3].

1- جابر عصفور : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، عند العرب ، دار التنوير للطباعة والنشر ، بيروت ،، لبنان ، ط2 ، 1983 ، ص119-120

2- عدنان حسين العوادي : لغة الشعر الحديث في العراق بين مطلع القرن العشرين والحرب العالمية الثانية ، دار الحرية بغداد 1985 ، ص9

3- عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز في علم المعاني ، شرح ، محمد عبد المنعم الخفاجي ، مكتبة القاهرة ، مصر ، ط1 ، 1969 ، ص85

وبذلك لا يعدو أن يكون التقديم والتأخير ، مجرد تحريك موضعي للكلم من مكان حسن إلى مكان أكثر حسنا ، لغاية جمالية بلاغية ، أي هو تبادل في المواقع ، تترك الكلمة مكانها في المقدمة لتحل محلها كلمة أخرى لتؤدي غرضا بلاغيا ما كانت لتؤديه لو أنها بقيت في مكانها الذي حكمت به قاعدة الانضباط اللغوي[1].فهو بذلك انزياح سياقي يصبح معلما متميزا للشعرية[2].

تقديم الخبر على المبتدأ :

ففي قول الشاعر :

ياثورة التحرير، أنت رسالة أزلية إعجازها ، الإلهـام

لك في الجزائر حرمة قدسية وبكل قلب في الوجود هيام[3]

نجد أن الجار والمجرور قد تصدرا الجملة في صدر البيت الثاني ، وكانا موضع عناية واهتمام الشاعر لذا قدمهما ، والعرب يقدمون الذي بيانه أهم لهم ، وهم ببيانه أعنى ، وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم[4]. فكاف الخطاب تعود على الثورة الجزائرية التي هي مصدر إلهام الشاعر ولذلك خصها بالعناية في محاولة منه ، لتأكيد رؤية خاصة مفادها أن الثورة هي التي تصنع حرمة الشعب الجزائري ، فكان جديرا به أن يلتف حولها ، ويحيطها بهالة من القداسة والطقوس الدينية .

إن هذا المسلك قد حفز ذهني ، بل أربكني وخلخل مشاعري ، فجعلني أحار من وجود تقديمين في موقع واحد (لك) و(في الجزائر) ، وأتساءل من أين اكتسبت الثورة قدسيتها ،أ لأنها ارتبطت بالجزائر ؟ أم هي قدسية مطلقة تتعلق بكل ثورة في أنحاء المعمورة ؟ هل هي ثورة ضد الاستعمار فقط؟أم هي ثورة عامة تطال الاستعمار

1- منير سلطان : بلاغة الكلمة والجملة والجمل ، منشأة معارف ، الاسكندرية ، د ت ، ص138

2- جون كوهين : بنية اللغة الشعرية ، ص18

3- مفدي زكرياء : اللهب المقدس ، ص47

4- سيبويه : الكتاب : تجقيق : الأستاذ عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط3 ، 1988 ، ج1 ، ص34

الخارجي والداخلي ؟أم هي ثورة على الظروف الاجتماعية المزرية ، أم ثورة فكرية ، أم ثورة أخلاقية ... الخ .

لكن الصحيح فعلا " أن مجرد المخالفة ينبئ عن غرض ما ، وأن هذا الغرض قد يكون توجيها لالتفات السامع إلى كلمة من كلمات عن طريق إبراز هذه الكلمة إبرازا يتحقق عنه تأثير ما وهي فكرة قررها باسكال حينما صرح بأن الكلمات المختلفة الترتيب يكون لها معنى مختلف وإن المعاني المختلفة الترتيب يكون لها تأثيرات مختلفة[1].

وربما كان تقديم الجار والمجرور (شبه جملة) المتعلق بالخبر المحذوف ، من أكثر أنواع التقديم التي وردت في ديوان الشاعر مفدي زكرياء ، ومثال ذلك قوله :

وفي صحرائنا جنات عـدن بها تنساب ثروتنا انسيابـا

وفي صحرائنا، الكبرى ، كنوز نطارد عن مواقعها الغرابـا

وفي صحرائنا ، تبر، وتمـر كلا الذهبين : راق بها وطابا

وفي صحرائنا شعر، وسحـر كلا الملكين ، حط بها الركابا

وفي صحرائنا ، أدب ، وعلم زكا بهما المثقف واستطـابا

وفي واحاتنا ، ظل ظليـل تفوز به ، نواعرها حبابـا[2]

إذ قدم الخبر (في صحرائنا) على المبتدأ (جنات ، كنوز ، تبر ، شعر ، أدب) وغايته من التقديم إظهار العناية بالخبر الذي ارتبط بالصحراء ، مسقط رأسه ، ليتأملهاتأملا جماليا بغية إظهار مواطن الحسن فيها ، وهذا يجعلنا نستحضر قصيدة للشاعر الأمير عبد القادر يفاضل فيها بين البداوة والحضر ، مطلعها :

ياعاذرا لامرئ قد هام بالحضر وعاذلا لمحب البدو والقفر[3]

1- عبد الحكيم راضي : نظرية اللغة في النقد العربي ، مكتبة الخانجي ، مصر ، 1980 ، ص213

2- مفدي زكرياء : اللهب المقدس ، ص35

3- الأمير عبد القادر الجزائري ، الديوان ، جمع وتحقيق : العربي دحو ، منشورات ثالة ، الأبيار ، الجزائر ط3 ، 2007 ، ص44

فالتجربة الشعرية تتكرر مع مفدي زكرياء والمواقف الشعورية والنفسية تعاد ، قلق

وإحساس بالغربة ينتابني الشاعر ، فالصحراء تمثل البيئة الجغرافية التي نشأ وترعرع فيها ، هي الطلل الذي يحن إليه لأنه يذكره بالأحبة ، وبذلك تصبح الصحراء محفزا للحياة والمقاومة ، فمن الطلل ذاكرة الجماعة محفورة تقاوم الفناء وتتعلم البقاء[1]. وفي المقابل فالصحراء وما حوته من مصادر رزق ومواطن جمال ، كانت سببا في جلب الويلات للشعب الجزائري ، حيث كانت أطماع الأوروبيين عامة والفرنسيين خاصة مواجهة للصحراء الجزائرية دون أننتناسى حجم الأطماع التوسعية التي أظهرتها دول الجوار ، والتي كانت ترغب في بسط نفوذها على مناطق بعينها من جنوبنا الكبير .

تقديم المفعول به على الفاعل :

يقول الشاعر :

وما فعل الغشم في أمرها وقد فوضت فيه جهالها

فلن تستحق العلا أمة تولي القيادة أرذالها

وكيف تريد البقاء بلاد تعد الضفادع أبطالها[2]

الأصل في ترتيب عناصر الجملة الفعلية أن يتقدم الفعل ثم الفاعل ثم المفعول به ، لكن الشاعر فاجئنا بهذا الانزياح اللغوي الذي خرق قواعد اللغة العربية ، وخلخل نظام بناء جملتها ، حيث نلحظ تقديم المفعول به " العلا " على الفاعل " أمة " في البيت الأول وتقديم المفعول به " البقاء " على الفاعل " بلاد " في البيت الثاني ، حيث يفترض في البناء النمطي لهاتين الجملتين أن تكونا على الشكل الآتي :

فلن تستحق أمة العلا

وكيف تريد بلاد البقا

1- عبد السميع حسنة : أحلام الخيال الفني مستويات الدلالة في شعر ذي الرمة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1998 ، ص59

2- مفدي زكرياء : اللهب المقدس ، ص275-276

والحقيقة أننا حين نزعم أن الشاعر قد خرق قواعد اللغة ، فإننا نتهمها بالقولبة والجمود والتمسك بنمط ترتيبي صارم لا تفارقه ، وهذا يتعارض مع ما ينشده المبدع من لغته التي يريدها " أن تتجاوز دائما هذا الإطار الثابت النفعي الى مستوى آخر يحاول فيه أن يمتلك اللغة ويصادقها ، ويحرك دوالها كيف يشاء ، فيقدم ما شاء له فكره أن يقدم ، ويؤخر ما شاء له أن يؤخر ، حرصا منه على تحقيق الهدف التأثيري والإيصالي في وقت معا ، فالتقديم والتأخير من الوسائل التي يحطم المبدعون من خلالها الإطار الثابت للغة لتحقيق أهدافهم[1].

مفدي زكرياء لم يقدم إلا لفائدة والظاهر أنها العناية والاهتمام بالمقدم ، والإفصاح عن فكرة سيطرت عليه ، ولعل في هذا التغيير الذي طرأ على الجملتين ، جمالا وتأثيرا ، لأنه السبيل إلى نقل المعاني من ألفاظها إلى المخاطبين كما هي مرتبة في ذهن المتكلم حسب أهميتها عنده ، فيكون الأسلوب صورة صادقة لإحساس المتكلم وصدق مشاعره[2].

فالمقدمان أمران جليلان ، وسببان عظيمان في وجود وكينونة الأمم وديمومتها وبدونهما هي أمة آيلة إلى الزوال والفناء .

فالعلا مطلب عزيز تنشده كل نفس أبية طموحة ، ترجو الخلاص من قيودها وهوانها وتأخرها بين النفوس ، فهو السبيل السؤدد والتعريف والحضور ، والتقاعس عنه مجلبة للعبودية والتنكير والغياب .ولن يتأتى ذلك إلاإذا تولى قيادة الأمة خيارها لأنهم يدركون خطورة المهمة التي أنيطت بهم وصعوبة التكليف الذي تصدوا له .

أما البقاء فهو سر الوجود ، إذ يقتضي أن تنسب المكرمات إلى أصحابها فيوجه إليهم الثناء والحمد جزاء بما فعلوا.

1- رمضان صادق : شعر عمر بن فارض – دراسة أسلوبية ، الهيئة المصرية العام للكتاب ، ط 1998 ، ص113

2- خليل أحمد عمايرة : في نحو اللغة وتراكيبها – منهج وتطبيق – دار عالم المعرفة للنشر والتوزيع ، جدة ، ط1 ، 1984 ، ص90

وقد أفلح مفدي زكرياء في هذا التقديم المرتبي لأنه ، يرجو بل يعلق كل الآمال على أبناء وطنه أن يلتفوا حول ما يحقق النجاح – (العلا ، البقاء) – للأمة الجزائرية ويعتصموا به وأن يتلافوا كل ما يسلبهم ذلك من حسابات شخصية حزبوية ضيقة ، فالظروف لا تسمح بذلك ، إن هذا التغيير في الترتيب الأصلي لمكونات الجملة الفعلية ، حيث يقدم المفعول به ويؤخر الفاعل يدل على إرادة قصدية يبغي من ورائها الشاعر ، الكشف عن معاني محجوبة ما كانت لتظهر لو بقي التشكيل البنائي على حاله ، فالتقديم " يكون دائما لغرض يتعلق بالمعنى وليس لغرض يتعلق بالبنية الشكلية أو بموسيقى الكلام"[1] ، فهو حين يقول :

مضى زمن القياصرة القدامى وعهد الفتك بالضعفا توارى

رمى المستعمرين إلى جحيم زمان لم نزل فيه أسارى[2]

قد قدم المفعول به (المستعمرين) على الفاعل (زمان) ، لأن ما يشغل الشاعر هو الاستعمار وهو المعني بالحديث والقذف إلى الجحيم ، فكان أولى بالتقديم ، وقد يكون ذلك من أجل خلق نوع من التشويق لدى القارئ ، ليعرف من هو الذي رمى المستعمرين إلى جحيم ، ليظهر في الأخير الفاعل بعد طول انتظار ، وبعدأن يكون التشويق قد بلغ ذروته

وفي نفس القصيدة يقول :

وفي أرض الجزائر، معجزات غدت للمؤمنين بها ، منارا[3]

في البيت تقديمان ، فالشطر الأول تقدم فيه الخبر شبه الجملة (في أرض الجزائر) على المبتدأ (معجزات) سعيا منه لإرضاء الذات وتعلقها بهذه الأرض الطيبة ، التي تمثل للشاعر الدار الذي لا بديل عنها ، فهي أرض مقدسة ولو لم تكن كذلك لما

1- خليل أحمد عمايرة : في نحو اللغة وتراكيبها – منهج وتطبيق ، ص90

2- مفدي زكرياء : اللهب المقدس ، ص155

3- المرجع نفسه ، نفس الصفحة

حظيت بهذا الشرف في أن تكون محلا للمعجزات والخوارق دون غيرها من البلاد ، وكأن المعجزة قد شرفت بأن تستقر

في أرض الجزائر الطاهرة ، فتغدو بذلك هذه الأرض موطن استقطاب للمؤمنين ومصدرا للاستثارة والحماس في نفوس الجمهور المستمع حتى تستحوذ على مشاعره ، أما في الشطر الثاني من البيت ، فتتقدم الفضلة وتتأخر العمدة ، تقدم شبه الجملة الجار والمجرور (للمؤمنين بها) على المفعول به (منارا) إشارة إلى العقيدة الإيمانية الراسخة ، فالجزائر بلد الإسلام والإيمان ، وفي ذلك رسالة صريحة إلى كل من يشكك في إسلامية وعروبة الجزائر ، ليعلم أن :

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب

ويصدق الأمر ذاته على قول الشاعر :

وتعمدوا قطع الطريق فلم ترد أسبابه ، بالعرب أن تتقطعا

سب بدنيا العرب زكى غرسه ألم فأورق دوحة وتفرعا[1]

لقد قدم الشاعر المفعول به المضاف (غرسه) ليكون في مرتبة قريبة من الفعل ، ليخلق نوعا من الانسجام بين الفعل والمفعول ، وليكون هذا الاقتران سببا في إظهار الفكرة التي يريدها الشاعر ، ومفادها أن الجزائر عربية الأصل منذ سنين غابرة ، وهذا العروبة قد تجذرت وسقيت بدماء أبنائها فنمت و أورقت جيلا يعتز بعروبته فهيهات أن يتنازل عنها مهما كانت الظروف ، وهذا ما يرغب مفدي زكرياء في أن يوصله للملتقي حتى يحدث فيه التأثير والانفعال الملائم[2].

إن هذا التقديم يدل على براعة فنية تعرض قدرة الشاعر سعيا منه إلى إظهار العدالة ومواطن القوة الخفية عند أبناء يعرب دون استثناء ، وفي ذلك يقول :

ولمصر دار العروبة ، حـرة تأوي الكرام ، وتستند المتطلـعا

1- مفدي زكرياء : اللهب المقدس ، ص60

2- مجيد عبد الحميد ناجي : الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1984 ، ص114

سحرت روائعها المدائن عندما ألقى عصاه ، بها الكليم فروعا[1]

يحيلنا الشاعر إلى مشهد عظيم يروع أعداء الله ، حينما وقف سيدنا موسى – عليه الصلاة والسلام – على أرض الكنانة ، أمام فرعون الطاغية وزبانيتهوقفة الرجل المؤمن بنصر الله وألقى عصاه فالتقفت ما كانوا يأفكون ، فكان تقديم المفعول به (العصا) في سياق المدح والثناء على مصر وأهلها ، على الفاعل (الكليم) لما قدمته مصر شعبا وحكومة – آنذاك – للعرب عامة وللجزائر خاصة في أيام محنتها واحتلالها ، ولسنا ممن ينكر الجميل .

تقديم الحال :

يقول مفدي زكرياء :

زوروا هناك مكرمين خطوطها وتسلقوا متفسحين جبالها

وتوزعوا بسهولها وشعابها وتفيئوا متنعمين ظلالها[2]

نلاحظ في هذا الأداء اللغوي تقديم الشاعر لـ " الحال " مكرمين – متفسحين – متنعمين" على المفعول به خطوطها – جبالها – ظلالها على الترتيب ، مع أنه من الفضلات ، فالحال فضلة زائدة على الكلام وسياق الجملة[3] ، وهو أولى بالتأخير على الأغلب الأعم من كلام العرب وهذا خروج عن نمطية القاعدة النحوية وتغيير في الأداءات الاستعمالية للغة ، وقد أدى هذا التغيير إلى خلق معنى جديد ، وإضافة دلالات جديدة للغة فهو يسخر ويتهكم من هؤلاء المتمردين بل يبالغ في تحقيرهم وإذلالهم وتهميشهم ، بدعوى أنهم مدعوون لزيارةالجزائر للاستجمام والتنزه لا غير ، فهم ليسوا أهل حرب ولا يقدرون خوضها ، لأنهم ضعاف .

1- مفدي زكرياء : اللهب المقدس ، ص63

2- المرجع نفسه ، ص 159

3- العكبري : اللباب في علل البناء والإعراب ، تحقيق : عبد الإله النبهان ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا ، ط1 ، ج1 ، ص301

الأساليب الإنشائية:الاستفهام : الذي " هو طلب خبر ما ليس عند المستخبر "[1] ، وقيل : " هو طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل باداة خاصة "[2] .

وهو أيضا : " استخبار وطلب من المخاطب أن يخبر أو يفهم عن شيء لم يكن معلوما بأداة خاصة "[3].بل هو أكثرالوظائف اللغوية استعمالا ، لأن الاتصال الكلامي يكاد يكون حوارا بين مستفهم ومجيب والاستفهام طلب لفهم[4].

ولعلنا في دراسة هذا الأسلوب في شعر الشاعر مفدي زكريا نحاول الإمساك ببعض رؤاه الشعرية باعتبار أن السؤال بنية عميقة منتجة لدلالة[5].

ولأن صوته الداخلي يطفح بالثورة والتحرر استثمر مفدي زكرياء إمكانات هذا الأسلوب ليفصح عن صوت الأنا المتمردة والرافضة للاستعمار ، مدركا أن الوجود عندما يضع نفسه موضع سؤال ، يتخلى عن صخب انبثاقه ، وحسم نفيه ، ليكشف عن نفسه وينفتح ، ويفتح الجملة على آفاق جديدة ، بحيث تغدو الجملة بذلك الانفتاح فاقدة لمركزه الذاتي الذي يصبح خارجا عنها مقيما في المحايد[6] ، لتتجسد شاعرية النص المفدوي بالاختلاف والابتعاد عن كل ما يمت للوجود الاستعماري بصلة ، لذلك حاول الشاعر أن يوسع من دائرة الاستفهام ووظيفته التعبيرية ليربط به

1- ابن فارسأحمد : الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامه ، تح : عمر الطباع ، ط1 ، بيروت ، مكتبة المعارف 1993 ، ص186

2- عبد العزيز عتيق : علم المعاني ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1974 ، ص96

3- خلف الله محمد أحمد : الفن القصصي في القرآن الكريم ، مكتبة الأنجلو مصرية ، ط3 ، 1965 ، القاهرة ، ص30

4- عبده الراجحي : التطبيق النحوي ، دار النهضة العربية ، لبنان ، ط1 ، ص29

5- محمد عبد المطلب ، البلاغة العربية ، قراءة أخرى ، مكتبة لبنان ، بيروت – 1997 ، ص291

6- موريس بلانشو : السؤال والجواب ، تعريب عبد السلام بن عبد العالي / موقع www.geocities.com

معاني كثيرة تجعله أكثر خصوصية للدلالة على إحساسه بالأشياء ، وكيفية رؤيته لها[1]. يقول الشاعر :

أمن العدل ، صاحب الداريشقى ودخيل بها يعيش سعيـدا ؟

أمن العدل ، صاحب الداريعرى وينال الدخيل عيشا رغيدا[2]

الاستفهام هنا مجازي يعبر عن حيرة وقلق شديدين ينتابان الشاعر لما يحدث بأرض الجزائر الطاهرة من ظلم وجور وتعسف في حقها وحق شعبها الذي يرى أرضه تغتصب عنوة وحرماته تستباح ، وخيرات بلاده يتمتع بها الدخلاء من المعمرين *الأوروبيين* ولا يجد من ينصره ، وقد صاحب هذا الاستفهام استنكار توبيخي للدلالة على أن المستفهم عنه أمر منكر وعرفا وشرعا[3]، وهو موجه لدعاة الديمقراطية وأنصار حقوق الإنسان الذين يتعاملون مع هذه القضايا المصيرية التحررية بالكيل بمكيالين ، وهو أيضا استفهام تبكيتي لتلك الأفواه المتشدقة والمتسلطة على الشعوب الضعيفة ، إذ لا ينتظر الشاعر ردا .

يقول الشاعر :

دعا التاريخ فاستجابـا (نوفمبر) هل وفيت لنا النصابا

وهل سمع المجيب نداء شعب فكانت ليلة القدر الجوابـا [4].

الشاعر يقر بأن الله استجاب لدعوات الشعب الجزائري و آماله في أن تتوحد الصفوف أمامالمغتصب الظلوم ، فتكون ثورة عارمة ، يقودها الشعب برمته على اختلاف أعماره و أطيافه وتوجهاته ، ضاربا كل ما يفرقه عرض الحائط لأن المصير واحد والهدف المنشود واحد فما كان من القريب المجيب إلاأن استجاب لنداء شعب

1- صلاح أبو حميدة : البلاغة والأسلوبية ، دار المقداد للطباعة ، ط1 ، غزة ، 2007 ، ص201

2- مفدي زكرياء : اللهب المقدس ، ص16

3- حفيظة أرسلان شابسوع : الجملة الخبرية والجملة الطلبية تركيبا ودلالة ، عالم لكتب الحديث ، ط1 ، 2004 ، اربد ، ص21

4- مفدي زكرياء : اللهب المقدس ، ص30

مظلوم طلب نصرته بصوت واحدوضمير واحد ، وقد وفق الشاعر في اختيار أداة الاستفهام " هل " لأنها تختص بطلب التصديق[1]. فالشعب الجزائري صدق الله فصدقه الله .

ويقول أيضا : **وهل في المغرب العربي يوما سينقطع التوجع والنواح**[2]

يظهر في البيت صدق أحاسيس مفدي زكريا ، وتطفو النزعة القومية فوق ماء المعاناة ، ألم مس بلاد المغرب العربي ، فكان حريا بالشاعر أن يعزي نفسه في هذا المصير المشترك ، غير قاطع الرجاء في استتباب السكينة وعودة الأفراح في المستقبل القريب

(سينقطع).

لم يكن استفهاما محضا ولا تساؤلا حقيقيا ، بقدر ما كان دعاء وتضرعا لرب العالمين في أن يسارع في رفع بلواه أو غضبه عن المغرب العربي الذي خارت قواه وأصابه الوهن لشدة ما لحقه من فواجع الدهر المتتالية .

دهى الشاعر مرارة وأسى يكادان لا يفارقانه ، فبمجرد أن ينجلي هم إلاو أعقبه هم آخر مما دفعه أن يتساءل ولا يرجو الإجابة لأنه يدرك أنه في محيط تشوبه الضبابية ويفتقد إلى أبسط حقوق الإنسانية ، و لا يمكن أن يجد فيهإجابات تطفئ مشاعره الثائرة أو تقلل من حدتها ، لذلك كانت أسئلة كثيفة المعاني والدلالات لا يمكن استقصاؤها لأنها تتعين في ضوء القرائن وسياق الكلام ، وكان النحاة يجتهدون في تعيين هذه المعاني ولكنهم كانوا يستوثقون من ذلك بما يشيرون إليه من قرائن ، مدركين أن الذوق والفهم هما أساس تسمية هذه المعاني[3].

1- أبي محمد عبد الله هشام : مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، تح : محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة المدني القاهرة ، 15/1

2- مفدي زكرياء : اللهب المقدس ، ص212

3-كريم حسين ناصح الخالدي : نظرية المعنى في الدراسات النحوية ، دار صفاء للنشر والتوزيع ، ط1 ، 2006 ، عمان ، الأردن ، ص 405

يقول الشاعر :

فلماذا كانت الدمعة حيرى بمثاقيك ؟ وقد رمت الصعودا

ولماذا تطلب الصفح ؟ فهلا كنت تدري (مصطفى) أن لا تعودا؟[1]

ولأنها للتصديق فقط يستعملها مفدي زكرياء مع الفعل المضارع ليفيد الاستمرارية، يقول :

وهل من بعد ضائقة وعسر بما قد نشتهي تجري الرياح

لنا في كل زاوية نحيب لنا في كل حادثة صياح[2]

إن ما يتوخاه الشاعر هو أن تستمر رياح التغيير في الحركة والدوران لتحقق ما يرجوه الشاعر وما يمثل أسمى الغايات عنده ، وهو التحرر واسترجاع السيادة الوطنية .

مفدي زكرياء يقبع في سجن مليء بالآلام والفواجع ، لكنه يقف موقف المتصبر ، المتسلي الذي يرجو الخلاص من أحزانه بشعرية فنية صادقة جسدها في وابل من التساؤلات المنثورة في أغلب قصائد ديوانه ، تساؤلات يتدفق من خلالها جملة من الأحاسيسوالعواطف التي تسكب في القلب حبا نابضا[3]، للوطن والمغرب العربي والأمة الإسلامية والعربية وللإنسانية جميعا .

يقول الشاعر[4] :

إلام ما تظل تلسعنا الجراح وفيم تبيت تنهشنا الرماح

فالشاعر يستفهم متعجبا من ذلك الشهيد ، الذي عجز أن يخفي دموعه حين أراد أن يركب على متن الطائرة وكأنه يعلم حتفه ومصيره ، فالتعجب " يكون في مقام ما

1- مفدي زكرياء : اللهب المقدس ، ص168

2- المرجع نفسه : ص212

3- عبد الهادي خضير نيشان : الصدق الفني في الشعر العربي الى نهاية القرن السابع الهجري ، اطروحة ماجستير ، جامعة بغداد ، كلية الآداب ، 1983 ، ص18

[4]مفدي زكرياء : اللهب المقدس ، ص212

يتعجب فيه المتكلم من مضمون الكلام "[1] ، ويتساءل مرة أخرى في عجب لماذا اختار الشهيد مصطفى[2]. هذا

الوقت بالذات ليطلب الصفح ، أ هذا مجرد عرف سرى بين الناس أن يودع المسافر أحبابه ويطلب منهم الصفح في جو أشبه ما يكون بالجو الجنائزي أم أن الشهيد على علم مسبق بما يحاك له في الكواليس ؟.

الخاتمة :

بعد هذه المسيرة القصيرة مع بعض شعر مفدي زكرياء للكشف عن جماليات لغته خلصنا إلى جملة من النتائج نجملها فيما يلي :

- لغة الشاعر من قبيل اللغة السهلة الممتنعة ، فهي لغة طيعة وعصية في آن واحد تنحو منحى الخطابية مما جعل البعض يشكك في شاعرية مفدي زكرياء بل عده ناظما.
- الشاعر وظف بعض التراكيب النحوية بطريقة تشي بفصاحة الرجل ، فاستعماله مثلا للتركيب الشرطي محترما القواعد والضوابط التي وضعها علماء اللغة يؤكد أن مفدي زكرياء متكمن من هذه اللغة ، كيف لا وهو الحامل لكتاب الله.
- استثمر الشاعر ظاهرة التقديم والتأخير، وقد كان بارعا فيها حيث أظهر مهارته وقدرته في استخدام التراكيب بطريقة انزاحت عن المألوف المعتاد.
- استخدم الشاعر مجموعة من الأساليب الإنشائية بدلالات لغوية متعددة .

وفي الأخير نقول أن لغة الشاعر مفدي زكرياء لغة بسيطة قريبة من محيطه وقصيدته ما هي إلا نتيجة بين الشاعر و واقعه.

---

[1]- حفيظة أرسلان شابسوغ : الجمل الخبرية والجملة الطلبية تركيبا ودلالة ، ص215

[2]- الشهيد مصطفى فروخي ، الذي عين سفيرا للجزائر في الصين الشعبية سنة 1960 ، لكن يد الاجرام اغتالته ، حيث احترق هو وعائلته في الطائرة التي كانت تنقله إلى بيكين